شخصيات مجهولة في الأدب العربي

إبراهيم بن سهل الاشبيلي

بقلم محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطي

كثيراً ما رأيت من بعض الأدباء جهلاً شائناً بذلك الشاعر المطبوع إبراهيم بن سهل ؛ فخدمة للأدب ، وإحياء لذكره ، أتقدم بهذه الكلمة الموجزة إلى صحيفة العلم و(رسالة) الأدب ، راجياً أن أتبعها أخرى إن سمحت لي ظروفي وكان في صفحات الرسالة متسع

نسبه ، مولده ، وفاته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعيش بن سهل الاشبيلي ، نسبة إلى إشبيلية مدينة من أعظم المدن الأندلسية . ولد سنة ستمائة وتسع عشرة هجرية ، ومات غريقاً في البحر وهو ابن أربعين ، سنة ستمائة وتسع وخمسين هجرية كما ذكره أبو الحسن الخزرجي

قال صاحب نفح الطيب : غرق وهو ابن أربعين سنة في البحر . وقيل جاوز الأربعين . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . وذكر مالك بن المرحل في غرقه قصة طويلة ، خلاصتها أنه كان من كتاب أبي علي بن خلاص صاحب سبتة فأرسله مع ابنه إلى المستنصر ملك تونس فغرقا في البحر لشدة هيجانه . ولما بلغ المستنصر غرق ابن سهل قال : عاد الدر إلى وطنه

إسلامه

كان يهوديا وأسلم . وقد اختلف العلماء والمؤرخون في صحة إسلامه ، فمن قائل إن إسلامه كان ظاهراً وباطناً ، ومن قائل إنه في الظاهر فقط . ولا بأس أن أنقل هنا بعض أقوال الفريقين . قال محمد الصغير الأفراني المراكشي : كان يهوديا ثم من الله عليه بالدخول في الملة المحمدية وحسن إسلامه . وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بارعة ، قال أبو حيان وقفت عليها ، وهي من أبدع ما نظم في معناها . وقال العزفي : كان يتظاهر بالاسلام ولا يخلو من قدح واتهام . وقال ابن مرزوق : صح لنا من أدركنا من مشائخنا أنه مات على الاسلام . وقال صاحب نفح الطيب : اجتمع جماعة مع ابن سهل في مجلس أنس فسألوه — لما أخذت منه الراح عن إسلامه — هل هو في الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم : للناس ما ظهر ولله ما استتر . وقال ابن سعيد القيسي في كتابه القدح المعلى : كتبت إلى ابن سهل استدعيه إلى أنس بثلاث أبيات فأجابني سراعا بأبيات آخرها

سآلفها إلف العتيق كتابه ولا أشتهي ورداً سواها الذي الخمر

فلما وصل أظهرت استحسان سرعة جوابه غير أني أنكرت عليه منزع بيته الأخير فقال : أليس في الجنة نهر خمر ؟ فقلت : بلى فقال : حسبي ، لا أبغي به بدلا . فقلت : بحرمة ما بيننا إلا ما أصدقتني هل أنت على دين أسلافك ، أم على دين المسلمين ، وأزلت عني شك الناس فيك . فقال : للناس ماظهر ولله ماستر . وقال في عنوان الدراية : سمعت شيخنا أبا الحسن الأندلسي يقول : شيئان لا يصحان : إسلام ابن سهل وتوبة الزمخشري من الاعتزال . وقد استدل الأفراني المراكشي على حسن إسلامه بقوله :

تسليت عن موسى بحب محمد
ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدي
وما عن قلى قد كان ذاك وإنما
شريعة موسى عطلت بمحمد

جاعلا أنه قصد بموسى الكليم عليه السلام ، وبمحمد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وعندي أنه لا دليل في هذين البيتين (رغم اعتقادي حسن إسلامه) ، وأن موسى المذكور غلام كان يعشقه ، وذكر اسم محمد تورية ، وقد جاء ذكر موسى هذا في شعره كثيراً ، من ذلك قوله :

كساني موسى من سقام جفونه
رداء وأسقاني من الحب أكؤسا

وقوله :

ليس ثاري على موسى وحرمته
بواجب وهو في حل إذا وجبا

وقوله :

أشاعوا أنني عبد لموسى نعم صدقوا على بما أشاعوا

وفى بيتيه الآتيين فصل القول أنه ممشوقه لا الكليم عليه السلام

موسى تنبأ بالجمال وإنما هاروت لا هارون من أنصاره
إن قلت فيه هو الكليم تحدد يهديك معجزة الخليل بناره

شهادات العلماء فيه

قال ابن القاضى فى كتابه درة الجمال : كان ابن سهل ممن انتحل صناعة القريض فاقتن بها وتصرف ، وعنى بعالم الأدب فوعى وصرف ، إلى أن بلغ الغاية فى الشعر فصار فيه أوحد ، لا ينعت ولا يحد . وقال أبو الحسن الخزرجى فى كتابه إعلام الزمن : إبراهيم بن سهل كان شاعر زمانه أسلم بعد يهوديته ومدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة بديعة . وقال مالك ابن المرحل : كان ممتنا ابن سهل وقد حسن إسلامه ، ولازم صلاة الجماعة ، ونظر فى الأدب فنبغ فى الشعر . وقال الافرانى : وإن من تتبع مقطعاته علم أن له خبرة واسعة بفن العربية كقوله :

أموسى أيا كلى وبعضى حقيقة
وليس مجازا قولى الكل والبعضا
خفضت مقامى إذ جزمت وسائلى
فكيف جمعت الجزم عندى والخفضا

وفى هذين البيتين تنكيت على أبى القاسم الزجاج إذ قال فى جملة : (وإنما قلنا بدل الكل والبعض مجازا) . وسئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظمه ، فقال : لأنه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق وذل اليهود

عفافه

وقد كان فيما يظهر من كلامه عف الازار ، وبيته المشهور من أعظم الأدلة على ذلك وهو :

وأبى عفافى أن أقبل تمره والقلب مطوى على جمراته

وقوله :

بتنا نشمشم والعفاف نديمنا خمرين من غزلى ومن كلماته

وقد ذهب ابن القاضى فى شرحه لأبيات الذهبى لما تعرض لابن سهل إلى أن هذا من صناعته لا طبيعته ، ولعمرى إن هذا منه توريك وتحامل ؛ وإلا فأى مانع من أن يكون العفاف فيه سجية ؟

شعره :

وله ديوان شعر مشهور ، وقفت عليه وهو فى غاية الجودة ، ولا بأس أن أثبت هنا من شعره ما يرخص الدرر ، ويكون فى هذه الأسطر بمثابة الغرر . من ذلك قوله :

مضى الوصل إلا أمنية تبعث الأسا
أدارى بها همى إذا الليل عسعسا
أتانى حديث الوصل زوراً على النوى
أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائرا
أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

وقوله :

قالوا سيسلبك العذار سفاهة
وحصاد عمرى فى نبات عذاره
إن لم أمت قبل العذار فعندما
يبدو أيسلم عاشق بفراره
مثل الغريق نجا فوافى ساحلا
قاذا الأسود روابض بجواره
إن العذار صحيفة تتلو لنا
ما كان صان الحسن من أسراره

وقوله :

يا حسنه والحسن بعض صفاته
والحسن مقصور على حركاته
صافحته والليل يذكى تحتنا
نارين من نفسى ومن وجناته
أونقته فى ساعدى لأنه
ظبى خشيت عليه من نفراته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا
ليفوز بالآمال من ضماته

وقوله :

نظر جرى قلبى على آثاره خلع العذار فلالما لعثاره
يا وجد شأنك والزمان وخلنى
ما المرء مأخوذ بزلة جاره

دنف ينيب عن الطبيب مكانه
لولا ذبال شب من أفكاره
للدمع خد فوق صفرة خده
فتراه مثل النقش فى دينـاره

وقوله :

ردوا على طرفىَ النوم الذى سلبا
وخـبرونى بقلبى أية ذهبا
علمت لمـا رضيت الحب منزلة
أن المنام على عينى قد غضبا
فقلت واحربا والصمت أجدر بى
قد يغضب الحسن إن ناديت واحربا

وقوله :

يقولون لو قبلته لاشـتفى الجوى
أيطمع فى التقبيل من يعشق البدرا
ولو غفل الواشى لقبلت نعله
أنزهـه أن أذكر النحر والثغرا
ومن لى بوعـد منه أشكو بخلفه
ومن لى بوعد منه أشكو به الغدرا
وما أنا ممن تحمل الريح شـوقه
أغار حفاظاً أن أبوح له سرا

وقد أبدع فى فنون البيان وأتى فى شـعره منها بالعجب العجاب . فمن حسن توجيهه قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلى
فأسقيتنى بالبعد غاتحة الرعـد
فبالله برد ما بقلبى من الجوى
بفاتحـة الأعراف من ريقك الشهد

وله موشح كبير ، أبدع فيه وأجاد ، تبارى العلماء فى شرحه وإظهار معانيه ودرره ، برهن فيه على سعة باعه فى العربيـة والصناعة الشعرية ، أوله

هل درى ظبى الحمى أن قد حما قلب صب حله عن مكنس
فهو فى جر وخفض مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

ولعلى فى فرصة أخرى أتمكن من شرح بعض أبياته وإبراز مكنوناته والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

موت صـــديق

للكاتب الفرنسى Xavier de Maistre

من كتابه « رحلة حول غرفتى »

ترجمة الأستاذ خليل هنداوى

سعيد ذلك الذى يجد صديقاً يلأمه منه قلبه وروحه . صديق يجمعه به وحدة ذوق ، وألفة عاطفة ، وجامعة معرفة . صديق لا يقلقه طمع ولا تسيره مصلحة . صديق يؤثر ظل شـجرة على ترف مدينة . سعيد من يملك صديقاً !

كان لى صديق اختضره الموت منى فى عنفوان صباه ، ومطلع عمله ، فى المهد الذى أصبحت صداقته حاجة لقلبى شديدة . كنا نتآزر معاً على أعمال الحرب ، ولم يكن لنا الأغليون واحد نتناوبه وكأس واحدة نشرب بها ، وسقف خيمة واحدة يظلنا . فى الظروف التعسة كان لنا ذلك السقف حيث كنا نحيا معاً وطناً جديداً . رأيته ينجو من كل مهالك الحرب ويسلم من أهوالها كأنما الموت كان يدخر أحدنا للآخر ، وكأنما نفـدت نباله التى صوبها إليه دون أن تصيبه . ولـكن هذا لم يكن إلا ليجعل فقده — عندى — أكثر ترويعاً . ولقد كان فى قعقعة السلاح والذهول الذى يملك النفس من جراء الأخطار ما يحول دون بلوغ آلام نزعه إلى عاطفتى وإحساسى . وموته قد يكون نفعاً لوطنه وشؤماً على أعدائه . لو كان ذلك لـكان أسفى عليه قليلاً ، ولـكنى فقدته فى وسط المسرات ورأيته يحتضر بين ذراعىَّ فى حين كانت تقوى صحته وتتوثق روابط مودتنا فى أيام الراحه والسكون

آه إننى لن أتعزى عن فقده ، وإن ذكراه لا تبرح قلبى ولا تحيا إلا فى طواياه . وإنها لن تكون فى الذين كانوا يحيطون به أو الذين حلوا محله . هذه الفكرة تجعل وقع فقده أنأى على النفس وآلم للقلب . وهذه الطبيعة التى تتراءى لنا خلبة لا تبالى حظ الناس تضع رداء ربيعها الزاهى وتتزين بأبهى حلل جمالها

(البقية على صفحة ١١٤٢)